

البرديات العربية وجذور المعرفة..

د. محمد صابر عرب

لقد ظهر ورق البردي كأداة للكتابة وشاع استخدامه خلال القرون الثلاثة الأولى في الإسلام، بجانب مواد أخرى كالجلد والرق والخشب والكتان والخزف وعظم الحيوانات والزجاج، ثم يأتي الورق العادي الذي أحدث نقلة هائلة في المعرفة.

تعد البرديات العربية المودعة بدار الكتب المصرية والمكتبة النمساوية وبعض المكتبات الكبرى في أوروبا بمثابة وثائق دامغة على المستوى الاجتماعي والثقافي الذي وصل إليه العرب خلال الثلاثة قرون الأولى من العصر الإسلامي، سواء على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي أو الإداري.

لقد كان المصريون أول من استخدم ورق البردي في الكتابة وتوثيق المعارف المختلفة، وقد انتقلت فكرة استخدام البردي في الكتابة من مصر إلى العراق وبلاد الشام وصولاً إلى معظم دول حوض البحر المتوسط حينما انتقلت المعارف العلمية والإنسانية إلى أوروبا، التي كانت قد فقدت رصيدها الحضاري

والعلمي بعد أن كانت الكنيسة قد سيطرت على المجتمع، وأصبح العلم في مواجهة صراع دامي مع الكنيسة.

وعلى الرغم من أن الصينيين أول من استخدم الورق العادي الذي أشيع استخدامه لكي يكون البديل العملي والرخيص في معظم دول العالم؛ لكن ظل استخدام البردي حتى القرن الرابع الهجري أحد الوسائل المهمة لشيوع المعرفة.

وتشير الإحصاءات العلمية إلى أن المتبقي من هذه البرديات في مكتبات أوروبا ٤٥٠٠ بردية، إضافة إلى ما تمتلكه دار الكتب المصرية ٣٧٣٩ بردية جميعها تتناول قضايا اجتماعية واقتصادية ودينية ومالية، وقد عنى الأستاذ مورتيث بجمعها حينما كان يشغل وظيفة مدير دار الكتب (١٨٩٦ - ١٩١١) وقد قام المستشرق أدولف جروهمان من تحقيق ٧٨٩ بردية أخرجها في عشر مجلدات صدر منها حتى الآن ست مجلدات تحت عنوان: «أوراق البردي العربي بدار الكتب المصرية»، وجاري إعداد باقي الأجزاء للنشر.

تقتني دار الكتب المصرية مجموعة نادرة من المخطوطات المكتوبة على ورق البردي لعل من أهمها مجموعة مصاحف نادرة كتب بعضها في القرنين الثاني والثالث الهجريين، من أهمها مصحف الإمام جعفر الصادق، ومن بين

أهم المخطوطات المكتوبة على البردي كتاب: «الجامع في الحديث» للفقير المصرى عبد الله بن مسلم (١٢٥-١٩٧هـ / ٧٤٣-٨١٣م).

لم تحظ البرديات العربية بالدراسة من جانب المؤسسات الأكاديمية العربية، بينما عنى بها مؤرخون أوروبيون، حيث قدروا أهميتها لأنها تقدم معارف راقية عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال القرون الإسلامية الأولى، فضلاً عن تطور العلوم الإسلامية كعلم الحديث والفقير والتفسير والتاريخ؛ إضافة إلى العديد من الوثائق ذات الطابع القانونى بعضها يتعلق بالزواج والميراث والتجارة والاقتصاد، وبعضها يتعلق بالعلاقات بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى كالمسيحيين واليهود ومستوى العلاقات التي نظمتها قواعد شرعية واجتماعية خلال أكثر من أربعمئة عام ابتداء من منتصف القرن السابع وحتى نهاية القرن الحادى عشر الميلاديين، حيث كان ٥٠% من مسيحي العالم يعيشون تحت حكم الإسلام وفق ما أشار إليه سيدنى جريفيت فى كتابه الشهير: «الكنسية فى ظل الجامع»، ومجمل ما ورد فى البرديات من معلومات وافية عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يعد دليلاً قوياً على مستوى التسامح الذى ساد بين أصحاب الديانات.

لعلنا أحوج ما نكون إلى دراسة البرديات العربية باعتبارها المصدر الأصيل والوحيد الذي يقدم صورة واقعية للمجتمع الإسلامي خلال فترة سادت فيها روح التسامح والمحبة بين الأكثرية المسلمة والأقلية من أصحاب الديانات الأخرى؛ فضلاً عن أهمية علم البرديات في معرفة تاريخ اللغة العربية وتطور قواعدها الإملائية والأسلوبية والأدبية.

لعل إعادة قراءة وتحقيق ودراسة هذه البرديات تعد من أهم الوسائل للتعريف بالقواسم المشتركة في العلاقات بين الإسلام والغرب، فأحياناً ما تكون الذكريات المشتركة هي أفضل الوسائل لتعزيز صورة المسلم في الغرب في ظل رغبة مشتركة من أصحاب الديانات لإيجاد صيغة حضارية للتفاهم والعيش المشترك.

فليس صحيحًا على الإطلاق أن الإسلام قد أمرنا بأن نحمل سيوفنا ونطلق
حناجرنا لكي نعلنها حربًا دائمة على مخالفيها في العقيدة، وهي دعوة أساءت
للإسلام والمسلمين .

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب
والوثائق القومية المصرية
Email: chairman@darelkotob.gov.eg